مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية | المجلد 14، العدد 2، (السداسي الأول 2022م)، ص. 261 – 282

أثر المدرسة القيروانية في إثراء الحركة العلمية والفكرية في الغرب الإسلامي (القرنان الرابع والخامس الهجريين أنموذجا)

The impact of the Kairouanese school in enriching the scientific and intellectual movement in the Islamic West (The fourth and fifth centuries AH as a model)

خالد ازذاذ*

جامعة القاضي عياض، مختبر مدارك الاجتهاد في المستجدات الإنسانية المعاصرة – مراكش، المملكة المغربية، Azdadkhalid1@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/12/10 تاريخ القبول: 2022/03/17 تاريخ النشر: 2022/06/30

ملخص:

تلقي هذه الدراسة تسلط الضوء على إبراز أثر المدرسة القيروانية في الحركة العلمية والفكرية في الغرب الإسلامي، خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، وتعد القيروان من أهم المدن الإسلامية التي أنشأها المسلمون في صدر الإسلام بمنطقة الغرب الإسلامي، تجمع بين رسالة الدين والدنيا، أو العلم والسياسة.

والفتوحات الإسلامية التي كانت تحمل مشاعل الحضارة إلى الأمم، وتسير الأمم بتعاليم الدين، وهذا يحتاج إلى العلم والمعرفة من أجل تسيير شؤون الحياة العامة وفق هذه التعاليم التي تحمل مبادئ التسامح والسلم والتعايش في جميع أحوال الناس سواء في الحرب أم في السلم. وكان للعلماء دور مهم في تسيير الشؤون المجتمعية؛ في القضاء والفتوى والاستشارة والتعليم والبناء سواء المادي أو المعنوي. والعلم لا منأى له عن سائر أمور حياة الناس الأخرى، ولا يجوز أن يتقدم الشخص إلى عمل عام أو خاص قبل أن يعرف حكم الدين.

ومن نتائج هذه الدراسة: إبراز الإنتاج العلمي بالقيروان خلال هذه الفترة، الذي عرف تطورا مهما، كما نكتشف المؤسسات التي أسهمت في تطور العلم والمعرفة بالقيروان. كما تبين الأعلام البارزة والتي اشتهرت بالقيروان ويرجع إليها فضل هذا الازدهار.

الكلمات المفتاحية: المدرسة القيرواني؛ الحركة العلمية؛ القيروان؛ القرنين الرابع والخامس؛ الغرب الإسلامي.

* المؤلف المرسل: (طالب دكتوراه بجامعة القاضي عياض، المملكة المغربية)

Abstract :

This study sheds light on highlighting the impact of the Kairouanese school on the scientific and intellectual movement in the Islamic West, during the fourth and fifth centuries AH. Kairouan is one of the most important Islamic cities established by Muslims in the early days of Islam in the Islamic West region, combining the message of religion and the world, or science and politics.

And the Islamic conquests that carried the torches of civilization to nations, and the nations were guided by the teachings of religion, and this needed science and knowledge in order to run the affairs of public life in accordance with these teachings that bear the principles of tolerance, peace and coexistence in all conditions of people, whether in war or in peace.

The scholars had an important role in the conduct of societal affairs; In the judiciary, fatwas, counseling, education and construction, whether material or moral. And knowledge is not immune to all other matters of people's lives, and it is not permissible for a person to advance to a public or private work before he knows the ruling of religion.

Among the results of this study: highlighting the scientific production in Kairouan during this period, which witnessed an important development. We also discover the institutions that contributed to the development of science and knowledge in Kairouan. It also shows the prominent flags that were famous in Kairouan, to which this prosperity is due.

Keywords: The Kairouanese School; the scientific movement; Kairouan; the fourth and fifth centuries; the Islamic West.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، الذي امتن الله على عباده ببعثته.

أما بعد: كان العالم الإسلامي خلال أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس مسرحا لصراعات حادة، وتبدو أحيانا ظاهرة وأحيانا خفية.

وكان هذا العالم يبدو وكأنه عالم يعاد تركيبه على نحو جديد، حيث ظهرت الفوضى العلمية والدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية... التي تمثلت في وجود فرق إسلامية تقسم العالم الإسلامي.

ومرت القيروان بمجموعة من الأحداث وخاصة على المستوى السياسي والديني وخاصة تعرضها للخراب على يد الصفرية والإباضية وطردهم للصنهاجيين منها إلى المهدية[1]. ثم انتقال العبيدية[2] إلى البلاد المصرية.

جاء في كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: "ونذكر فتنة العرب وأسبابها ودخولهم إلى القيروان وخرابها وتنقل أمراء صنهاجة إلى المهدية ومن ملكها منهم وما اشتهر في ذلك من الأخبار عنهم من ملوك المناديين والحماديين إلى حين ظهور الموحدين".[3]

من هنا يظهر بأن القيروان عرفت تغيرات وتطورات على المستوى العلمي والفكري في القرنين الرابع والخامس الهجريين. ولإظهار هذه التغيرات على المستوى الفكري والعلمي، ارتأيت أن أتناول هذا الموضوع الذي عنونته ب: "الحركة العلمية والفكرية بالقيروان خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين".

---

[1] المهدية: مدينة بتونس بينها وبين القيروان مرحلتان أسسها أبو محمد عبيد الله المهدي. (انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي، 344/8).

[2] نسبة إلى عبيد الله الشيعي، اسمه الكامل هو: عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر ابن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب.(انظر: البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي أبو العباس، 158/1.

[3] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 3/1.

الفكرة المحورية للبحث:

يناقش هذا البحث قضية محورية تتمثل في بيان الإنتاج العلمي بالقيروان، والمؤسسات العلمية التي أسهمت في ازدهار القيروان وتحقيق المكانة المرموقة في الغرب الإسلامي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، وإبراز أشهر العلماء في هذه المرحلة، وكذلك المكتبات التي اشتهرت في هذه الحقبة الزمنية بالقيروان.

أهداف البحث:

- الكشف عن بعض مميزات الإنتاج العلمي بالقيروان خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين.
- بيان أشهر العلماء الذي أنتجوا العلم والمعرفة بالقيروان في هذه المرحلة.
- إلقاء نظرة حول المؤسسات العلمية مثل الكتاتيب والمساجد ومجالس الأمراء والمكتبات العالمة والخاصة في هذه المرحلة بالقيروان.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في كونه جاء لإبراز خصائص الحركة العلمية بالقيروان، والمؤلفات والأعلام التي اشتهرت بالقيروان وساهمت في النهضة العلمية إبان هذه الحقبة الزمنية، ومكانة القيروان العلمية في الغرب الإسلامي.

المنهجية العلمية المتبعة:

اعتمدت في هذه الورقة المنهج التحليلي في دراسة الكتب والمؤلفات المتعلقة بهذا الموضوع، من أجل استنباط ما يتعلق الحركة العلمية في القيروان خلال القرنين الرابع والخامس، وتوظيفها في مستويات متعددة ذات الصلة بالموضوع.

خطة البحث:

لمقاربة هذا الموضوع وتناول فقراته اعتمدت الخطة البحثية الآتية:

عقدت في هذا البحث مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة.

فأما المقدمة: فأشرت فيها إلى الفكرة المحورية للموضوع، وأهدافه وأهميته، والمنهجية المتبعة في تناول الموضوع، وأما المطلب الأول: أخصصه بعرض الإنتاج العلمي بالقيروان في القرن الرابع والخامس وقبلهما، أما المطلب الثاني: تناولت فيه المؤسسات العلمية التي كانت في القيروان في هذه الحقبة من الزمن، أما المطلب الثالث: فأعرض فيه المكتبات التي كانت في القيروان في القرن الخامس وما قبله.

أما الخاتمة خصصتها للخلاصات التي توصلت إليها من خلال البحث، وأهم التوصيات في هذا الموضوع.

المطلب الأول: أهم المصنفات العلمية في القيروان خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين:

التعريف بالمدرسة القيروانية:

قال الحسين بن محمد شواط في كتابه مرسة الحديث القيروان: "القيروان – بفتح القاف والراء- لفظ فارسي معرّب، وقد تكلمت به العرب قديما(...) وهي اسم للقافلة، وللجيش أيضا، وقيل إنها بفتح الراء: الجيش، وبضمها: القافلة، ومن معانيها كذلك: معظم العسكر، وموضع اجتماع الناس، ومحط أثقال الجيش".[4] ويرى أيضا أنها تأسست بعد أكثر من عشرين سنة من بداية الفتح.[5]

وأول من بنى مساكن للجند وسماها بـ "القيروان" هو معاوية بن حديج سنة 45هـ، وكان ذلك عند القرن[6] (وهو جبل قريب من القيروان)، وفي هذه الغزوة توفي الصحابي أبو زمعة البلوي ﷺ، وبه سميت مقبرة القيروان بعد ذلك بالبلوية، مما يؤكد قرب المساكن التي بناها ابن حديج من موقع القيروان، وذلك ما صرح به صاحب معالم الإيمان حين قال: "فنزل بمكام القيروان اليوم".[7]

ولما قدم عقبة سنة 50هـ لاحظ كثرة ارتداد البربر، وضرورة تأسيس مدينة للمسلمين فقال لأصحابه: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزة للإسلام إلى آخر الدهر".[8] فاتفق رأيهم على ذلك، وأمرهم بالبناء، بعد أن استشارهم حول الموقع الذي امتاز بطيب مرعاه، وبعده عن العدو حتى لا يطوقه العدو ليلا... .[9]

---

[4] مدرسة الحديث القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط:1، 1411هـ، ص:43.

[5] مدرسة الحديث القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الحسين بن محمد شواط، ص:45.

[6] انظر: الاستقصاء، 77/1. وانظر: الكامل في التاريخ للزكشي، 231/3.

[7] انظر: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، لأبي عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي الدباغ (605-696هـ)، أكمله وعلق عليه: أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت 849هـ)،تحقيق وتعليق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس.، 141/1.

[8] انظر: البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي أبو العباس ، 19/1

[9] مدرسة الحديث ، ص:45-46.

وتأثرت القيروان بنكبة الأعراب الذين خربوها سنة 448هـ[10]، ففقدت بريقها بصفتها عاصمة ثقافية، حيث إن القيروان كانت في بداية القرن الثاني الهجري مركزا علميا وثقافيا نشيطا، وصارت في القرن الثالث للهجرة أحد المراكز الرئيسة للثقافة الإسلامية في الغرب الإسلامي.

وقد مثلت المساجد، وخاصة جامع عقبة بن نافع، ومجالس العلماء والمكتبات أماكن بارزة للتعلم.

وبرزت بها أسماء وشخصيات لامعة منها:

- يحيى بن سلام البصري (ت 200هـ) صاحب التفسير المعروف الذي اختصره ابن أبي زمنين ويسمى: (مختصر تفسير يحيى بن سلام لأبي عبد الله محمد ابن أبي زمنين).

- أسد بن الفرات (ت 213هـ)، صاحب الأسدية وهي أصل المدونة.[11]

- والفقيه سحنون (ت 256هـ) الذي كان أعظم رجال ذلك العصر والذي أصبح كتابه الموسوم بالمدونة مرجعا فقهيا لرجال القيروان، قال القاضي عياض:" ظهر على يد الإمام سحنون وله مصنف جامع لمسائل المذهب مؤسسه على الحديث والآثار، وذلك هو كتاب المدونة الكبرى، عمدة المذهب المالكي في إفريقية والمغرب، وقد وُضع عليها من الشروح والاختصارات والتعاليق ما لم يعرف لغيرها من أمهات الفقه".[12]

- ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ) صاحب كتاب الرسالة[13] وكتاب النوادر والزيادات.[14]

تواصل هذا النشاط العلمي للقيروان في القرن الخامس الهجري على يد أعلام كبار منهم:[15]

- أبو الحسن القابسي (ت 403هـ)، الذي ألف كتابه الممهد وهو يقع في ستين جزءا، وكذلك له رسالة في الاعتقادات.[16]

---

[10] جرت بين الأعراب وبين المعز حروب كثيرة كانت فيها الدائرة عليه، وتمكنوا من دخول القيروان سنة 443 هـ، فخربوها وأتوا على الأخضر واليابس، وتقاسموا مدنها، فما من قرية إلا وقد سحقت وأكلت، وأهلها عراة أمام حيطانها، من رجل وامرأة وطفل، يبكي جميعهم جوعا وبردا، وانقطع المير عن القيروان، وتعطلت الأسواق.(انظر: البيان المغرب، 1/ 291).

[11] أسد ابن الفرات بن سنان أبو عبد الله الحراني الإفريقي، كان يتميز بالعبقرية، وكان له الأثر في تدوين فقه المدرسة المغربية من خلال كتابه المعروف بالأسدية. (انظر: المذهب المالكي مؤلفاته – خصائصه وسماته، لمحمد المختار محمد المامي، ص:96 . وانظر: إفادة السالك للعلمي، ص: 271).

[12] المدارك للقاضي عياض: 317/1.

[13] يعتبر كتاب الرسالة من أهم ما ألف في المذهب المالكي ويعد من حيث الأهمية والتداول، الكتاب الثالث بعد الموطأ والمدونة، وقد رزق العناية والقبول، وتأثر به الناس.(انظر: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ص:193).

[14] في هذا الكتاب استطاع أن يجمع ما تناثر من روايات وآراء لأئمة المذهب في المدونات المالكية المختلفة غير المدونة السحنونية، وسماه النوادر والزيادات على ما في المدونة.(انظر: المذهب المالكي، ص:98).

[15] الرحلات العلمية بين القيروان وفاس، مقال كتبه د. منير رويس، مجلة الجذوة العدد الأول، أبريل 2013.

[16] المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، ص : 174 .

وهذا يبين لنا المستوى الرفيع الذي بلغه مركز الفكر في القيروان، وتأثيره في المراكز الأخرى في أنحاء العالم. فابن أبي زيد القيرواني ألف كتابه الرسالة لتدريس للصبيان (لتعليم الصبيان)، ولكنها بلغت العالم، وقال الدباغ:" انتشرت في سائر بلاد المسلمين حتى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وجميع بلاد إفريقية والأندلس والمغرب وبلاد السودان وتنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بماء الذهب، وأول نسخة بيعت ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري بعشرين دينارا ذهبا". [17]

وهؤلاء العلماء الأفذاذ يعتبرون من رواد المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي، لذلك كان يرحل الناس إليهم لطلب العلم على أيدي هؤلاء وغيرهم، ووقفت على أنه كانت هناك رحلات لطلب العلم بين فاس والقيروان وذلك منذ تأسيس القيروان.

وممن قصد القيروان من المغاربة وخاصة من مدينة فاس:

- دراس بن إسماعيل (ت 357هـ)[18] الذي تلقى العلم بالقيروان من أبي بكر بن اللباد (ت 330هـ). [19]

- وقاضي فاس أبو محمد عبد الله بن محمد بن المحسود الهواري (ت 401هـ) رحل إلى القيروان ولقي ابن أبي زيد القيرواني وشاهد تأليفه للنوادر والزيادات.

- وعيسى بن سعادة بن موسى (ت355هـ) سمع من الدباغ وهو من علماء إفريقية. [20]

فهذا يبين بأن القيروان كانت المركز الرئيسي للمغرب الأوسط والأقصى، وهي المنارة العلمية الأولى التي امتد شعاعها إلى هذه البقاع، ولذلك ليس غريبا أن نجد أبناء المغرب الأوسط والأقصى يقصدون القيروان للتزود من العلوم والمعرفة والتلقي عن علماء القيروان والمشاركة في الحياة الفكرية.

---

[17] معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، للدباغ ،138/3.

[18] دراس بن إسماعيل: من أهل مدينة فاس؛ يكنى: أبا ميمونة. وكان: فقهيا حافظا للرأي على مذهب مالك، وله رحلة حج فيها ولقى علي بن عبد الله بن أبي مطر بالأسكندرية، وسمع منه كتاب آبن المواز وحد به بالقيروان، سمعه منه أبو الحسن بن القابسي الكفيف وكان: يقرأ عليه بالقيروان ودخل آبن ميمونة الأندلس، وتكرر وجوده فيها طالبا ومجاهدا، فكان مترددا في الثغر. وسمع منه غير واحد. حدث عنه عبدوس بن محمد الثعري أبو الفرج وغيره، وتوفي سنة سبع وخمسين وثلاث مائة بمدينة فاس، ودفن عند باب الجيزين.(انظر: تاريخ علماء الأندلس، عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، (ت: 403هـ)، ، 173/1).

[19] انظر: ترتيب المدارك: 395/4.

[20] انظر: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، ص: 129.

وربما طغى الطموح والشوق ببعضهم لكي يتجه إلى المشرق بعد القيروان، وكأنه يرى نفسه أهلا بعد أن حصل على قدر كبير من المعارف للإقامة في القيروان والاستقرار فيها لكي يتلقى العلم عليه من قبل طلبة القيروان، أو يفضل الإقامة فيها باعتبارها مركزا فكريا أوسع وأعمق يتناسب مع ثقافته ومع ما يطمح إليه من نشر لما حصل عليه من المعرفة.

ومن الذين تلقوا العلم في القيروان ثم رحلوا إلى المشرق وعادوا إلى القيروان بعد رحلتهم إلى المشرق: بكر بن حماد.[21]

وقد صور الشاعر أبو القاسم الفزاري القيرواني (ت345هـ) في قصيدة طويلة مكانة القيروان العلمية منها:

فَهَلْ لِلْقَيْرَوَانِ وَسَاكِنِهَا ** عَدِيلٌ حِينَ يَفْتَخِرُ الْفَخُور

بِلاَدٌ حَشْوُهَا عِلْمٌ وَحِلْمٌ ** وَإِسْلاَمٌ وَمَعْرُوفٌ وَخَيْرٌ

وَمِنْهَا سَادَةُ الْعُلَمَاءِ قَدَما ** إِذَا عُدُّوا، وَلَيْسَ لَهُمْ نَظِير

وكان القيروان طوال هذه الحقبة الزمنية محط أنظار العلماء، يفدون إليها من كل الأماكن وينهلون من معارفها.[22]

نستنتج مما سبق بأن القيروان كانت مركزا علميا مهما، وهذا يظهر من خلال الإنتاج العلمي الذي خلفه علماؤها الكرام، وعلماؤنا استفادوا من هذا العلم الغزير، وكثيرا ما يستندون إلى أقوال هؤلاء وخاصة ابن أبي زيد القيرواني.

وكل هذه الحركة العلمية الكبيرة أسفرت عن عدد من المؤلفات والمصنفات العلمية القيمة منها:

- الأسدية لأسد بن الفرات.
- المدونة للإمام سحنون.
- الرسالة لابن أبي زيد القيرواني
- النوادر والزيادات، لابن أبي زيد القيرواني.
- تفسير يحيى بن سلام البصري، واختصره أبو عبد الله ابن أبي زمنين.
- آداب المعلمين، لأبي عبد الله محمد بن سحنون.
- رسالة في الاعتقادات، لأبي الحسن القابسي.
- الممهد، لأبي الحسن القابسي... وغيرها كثير.

[21] انظر: كتاب القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، د. محمد محمد زيتون، ص:432. وانظر: وقائع الندوة التي انتظمت بالقيروان، يوم الأربعاء 20 يناير 2010، بعنوان: " بيت الحكمة بين بغداد والقيروان: التواصل الثقافي العربي الإسلامي".

[22] موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامي المغربية، السالف الذكر. وانظر: وقائع الندوة التي انتظمت بالقيروان، يوم الأربعاء 20 يناير 2010، بعنوان: " بيت الحكمة بين بغداد والقيروان: التواصل الثقافي العربي الإسلامي".

المطلب الثاني: النهضة العلمية في القيروان:

تعتبر القيروان مركزا حضاريا لانتشار المذهب المالكي لأن جل علماء الغرب الإسلامي توفوا في القيروان في القرن الخامس وقبله، كما كانت هناك مراكز علمية، مثل الكتاتيب والمساجد، وكذلك بيت الحكمة، كما كانت هناك مؤسسات علمية في القيروان يمثلها العلماء والفقهاء سواء من المدرسة الفقهية أم من المدرسة الحديثية.

1. الكتاتيب والمساجد:

ابتدأت حركة التعليم في الكتاتيب والمساجد منذ القرن الثالث، وخاصة حينما فرض الإمام سحنون الرقابة لتفريق حلق أصحاب الاتجاهات المبتدعة من جامع عقبة ابن نافع، وقد تواصل الإجراء إلى أواخر العهد الأغلبي.

ومن مظاهر تلك الرقابة نذكر:

الحصار الفكري الذي ضربه علماء المالكية على مخالفيهم، وقساوة أحكام قضاتهم على من يتهم بالزندقة، إلى جانب نوعية المواد التي يمكن للطالب أن يتلقاها في دراسته[23] فهي تقتصر أساسا على العلوم الدينية، وعلى رأسها الفقه المالكي.

أما بقية العلوم فبعضها محرم مثل النظر في النجوم، وبعضها مكروه مثل علم الأنساب، والبعض الآخر من العلوم مباح للصبيان في الكتاتيب، لكن دون الإكثار مثل الحساب والعربية، والخط وجميع النحو والشعر وأنها لا تدخل في واجبات المعلم.[24]

وذكر محمد ابن سحنون في كتابه آداب المعلمين المكانة التي حظيت بها الكتاتيب القرآنية بقوله: "ولم يزل شأن الكتاتيب في نمو وعددها في ازدياد وتكاثر، في العاصمة وفي المدائن الإفريقية الكبيرة كتونس وسوسة[25] وصفاقس حتى لم يخل منها درب من الدروب، أو حي من الأحياء وربما تعددت الكتاتيب في الحارة الواحدة مثلما تعددت المساجد في الحارات، ولا عجب إن اعتبرت الكتاتيب في القديم كملحقات بالمساجد وتوابع لها، بل إنها وجدت أيضا في دور الأعيان، بل وبالأحرى في قصور الوزراء والأمراء".[26]

---

[23] انظر: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس، ص: 143.

[24] انظر: كتاب آداب المعلمين، ابن سحنون، تح: حسن حسين عبد الوهاب، ص:104. وانظر: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس، ص:149.

[25] سوسة : مدينة صغيرة بنواحي إفريقية بينها وبين صفاقس يوما، خرج منها محدثون وفقهاء و أدباء منهم: يحي بن خالد السوسي مغربي وغيرهم. (انظر: معجم البلدان، 320/3).

[26] انظر: كتاب آداب المعلمين، ص:37-38.

ونستخلص من هذا الأمر بأن التعليم في الكتاب كان حاضرا في القيروان، ومن المؤسسات العلمية المهمة في إفريقية.

2. بيت الحكمة:

تعتبر مؤسسة بيت الحكمة أو دار الحكمة من أعظم المؤسسات في القيروان أسسها إبراهيم بن أحمد كرد فعل على ذلك الحصار (مراقبة الكتاتيب)، عمد إلى بعث مؤسسة علمية مستقلة تسمى بيت الحكمة تتميز بإعراضها عن العلوم الفقهية وباهتماماتها، بالمقابل بالفلسفة والطب والفلك والترجمة والحساب وغيرها.[27]

ومن الأعلام المرتادين لبيت الحكمة:

- إسحاق بن عمران البغدادي.
- أبو بكر القمودي الذي طغى عليه الاعتزال.
- سعيد بن الحداد (ت302هـ)، الذي خرج عن المذهب المالكي.[28][29]

فهذه المؤسسة كانت تمثل مدرسة النظر التي ترفض التقليد وتنبذ التقيد بمذهب فقهي معين، كما يمكن اعتبارها المؤسِّسة للمدرسة الكلامية السنية الإفريقية.[30]

كما كانت ملتقى للمناظرات مع الفاطميين وممثليهم في بعض المسائل التي كانت محل خلاف بين أهل السنة والشيعة، مثل مسائل القياس وتفضيل علي بن أبي طالب ﷺ والتصلية عليه استقلالا وحديث غدير خُم. وقد أفادنا الخُشَني بذكر ثلاثة مجالس عقدت للمناظرة بين الاتجاهين، مع إفادتنا بذكر أسماء الحاضرين فيها وهي:

- **المجلس الأول:** بحضور أبي عبد الله الصنعاني (ت298هـ).
- **المجلس الثاني:** بحضور أبي العباس أخي أبي عبد الله. (ت298هـ).[31]
- **المجلس الثالث:** بحضور عبيد الله المهدي.[32]

---

[27] انظر: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، للدكتور حسن حسين عبد الوهاب، 196/1.

[28] أخذ العلم عن سحنون، ثم تحول إلى الذهب الشافعي (من غير تقليد)، بل كان كثيرا ما يخالفه، ولا يعتقد مسألة إلا بنظر وحجة، كما كان سيئ الرأي في أبي حنيفة، في الوقت نفسه وجه انتقادا لاذعة إلى الدونة، مما جعل رد فعل علماء المالكية ضده قويا، فرفضه أصحاب سحنون وهجروه وأغروا به أحد الطلبة فهم به... (انظر: تراجم الأغلبية، ص:352- 353).

[29] انظر: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس، ص:143.

[30] نفسه، ص:147.

[31] نفسه، ص:147.

[32] كانت سنة وفاتهما في يوم واحد، حيث قتلوا علي يد عبيد الله المهدي، قال عي حسين الخربوطلي: " ولقي أبو عبد الله، وأبو العباس، وأبو زاكي حتفهم في يوم الاثنين في منتصف جمادى الآخرة سنة 298هـ، وكان مصرع الأخوين في مدينة رقادة، وصلى المهدي على جثمان أبي عبد الله وقال: رحمك الله وجزاك خيرا بجميل سعي"(انظر: أبو عبد الله مؤسس الدولة الفاطمية، للدكتور علي حسين الخربوطلي، 1972م، ص: 64) .

في بداية القرن الرابع يتقلص دور القيروان باعتبارها مركزا للدراسات المالكية، إذ يظهر أن علماء المالكية في فترات محددة منعوا من مجالس الفتيا من قبل الفاطميين، مما اضطر بعضهم إلى تعاطي ذلك سرا، ويكون ذلك أحيانا بدار عالم.

والنتيجة الحتمية لهذه الظروف هو تراجع عدد الطلبة الوافدين على إفريقية (القيروان)، خاصة من الأندلس، بل يظهر أن اتجاه الرحلة والهجرة انعكس في العهد الفاطمي، وأصبح للأندلس على حساب القيروان.[33]

ويمكن تفسير هذا التراجع بشدة توتر العلاقة التي كانت بين الفاطميين والأمويين، مما ساهم في إضعاف نشاط الرحلة إلى القيروان.

وهذه الظروف أدت إلى نوع من الضعف في الدراسات الفقهية المالكية في العهد الفاطمي، وعاب دراس بن إسماعيل أبو ميمونة (ت 357هـ)، على إفريقية من المالكية قلة الحفظ.[34]

وفي أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس ظهرت مدرسة فقهية أعادت للقيروان إشعاعها، وهذه المدرسة لم تكن بناية بل مثلها فقهاء القيروان، وأعادوا الحياة للدراسات المالكية وازدهارها وإشعاعها على مستوى الغرب الإسلامي، بصفتها مركزا لتدريس الفقه المالكي والتأليف فيه، ويمكن أن نقسم هذه القضية إلى مراحل:

المرحلة الأولى: من أشهر العلماء في هذه المرحلة:

- ابن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ)، يعتبر جامعا لمذهب مالك وشارحا لأقواله، إليه كانت الرحلة من الأقطار نحو الغرب الإسلامي، وكثر الآخذون عنه.[35]

وبعد وفاة أبي زيد القيرواني تربع عبد الخالق بن أبي سعيد بن شبلون (ت390هـ) للإفتاء والتدريس. أتى بعده أبو الحسن القابسي (ت 403هـ).

- وأبو الحسن القابسي (ت 403هـ). إذ هو أعلم ممن بقي من القيروان، وقد كان فقيها أصوليا متكلما مؤلفا مجيدا.[36] ومن مؤلفاته: "الكتاب الممهد"، يقع في ستين جزءا وهو مبوب على أبواب الفقه، جمع فيه بين الحديث والأثر والفقه، وأجازه لجماعة منهم: عثمان بن سعيد الداني المقري(ت444هـ)، وكذلك: "رسالة في الاعتقادات" وقد تفقه عدد من علماء القرن الخامس على يديه ومنهم أبو عمران الفاسي (ت 430هـ).[37]

---

[33] انظر: المدارك ، للقاضي عياض، 424/4..

[34] انظر: المدارك ، للقاضي عياض: 489/4.

[35] انظر: الديباج لابن فرحون، ص:158.

[36] انظر: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، ص:173.

[37] انظر: مسائل أبي الوليد بن رشد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني ، 931/2 . وانظر: المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ص:174.

المرحلة الثانية: مثلها أبو عمران الفاسي (430هـ)، وهذا العالم الفقيه مغربي فاسي.

كتب أحد الفقهاء الأندلسيين إلى علماء القيروان بمائة من فنون العلم، فأجابه عنها أبو عمران الفاسي، فرد ذلك الفقيه شعرا يمدح فيه علماء القيروان وحاكم إفريقية:

يا معز أعز أهل الدين ** وتردى بكل فضل مبين ...

فمن القيروان تبغي المعاني ** وبها نشر كل علم مصون.[38]

وهذا نستخلص من خلاله مكانة العلم التي كان يتمتع بها أبو عمران، وكذلك إدماج المعز بن باديس في هذا المدح، دليل على اعتراف العلماء به ويظهر بأنه كان سنيا.

وكذلك هذه المرحلة هي التي عاش فيها الإمام السيوري رحمه الله، وأنه حضر هذا الازدهار والتطور، وهو أيضا كان له عطاء فقهي وفي إجاباته يستند إلى هؤلاء العلماء العظام.

3. مجالس الأمراء:

تعتبر مجالس الأمراء من المواضع التي يقع فيها تدول العلم والمذاكرة: المجالس التي كان يعقدها أمراء القيروان ويستدعون لها العلماء، وقد وجد ذلك منذ عهد الولاة.

وفي زمن الإمام أبي القاسم السيوري اشتهر بلاط المعز بن باديس (407هـ- 449هـ)، الذي كان يكثر من مجالسة العلماء، وكان يتودد إليهم، ويُهدي لهم الكتب، ويزين مجالسه بحضورهم ومذاكرتهم.[39]

4. حوانيت العلماء:

لقد اشتغل بعض علماء القيروان بالتجارة، واتخذوا فيها المجالس للمذاكرة، فكان يقصدهم فيها الطلبة، ومن هؤلاء: ربيع القطان (ت 333هـ) قد حول حلقته إلى حانوته في عهد بني عبيد، قال القاضي عياض: "وكان جعل على نفسه ألا يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله دولة بني عبيد، وكان مع ذلك ملتزما في حانوته يبيع فيه القطن، وفيه يأتيه من يطلب منه ويسأله".[40]

وقال أحد إخوة ربيع القطان: "يأتي إليه قوم فيقعدون عنده فيسألونه عن علم رفيع فيجيبهم بكلام عال، فإذا قاموا عنه رجع إلى حلقة القطن يبصر فيها ويطلب الحبة والخروب".[41]

وكان اللخمي(ت478هـ) إذا دخل حانوته استقبل القبلة وذكر الله تعالى ثم أقبل على غلامه بالوعظ، وكان يفعل ذلك كل يوم.[42]

---

[38] انظر: المدارك للقاضي عياض :701/4.

[39] انظر: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، حسن حسني عبد الوهاب: 343/1. وانظر: بساط العقيق، ط: 78 وانظر: المدرسة الحديثية بالقيروان: 164/1.

[40] المدرسة الحديثية بالقيروان :165/1

[41] المدارك 313/5. وطبقات علماء إفريقية وتونس، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي، ص: 100

[42] طبقات لأبي العرب، ص:48

انطلاقا من هذه الإشارات التي كانت مليئة بالمحافل العلمية، والمراكز العلمية المختلفة، لا شك أنها كونت علماء أفذاذ، وأنتجت لنا علوما مختلفة ورصينة.

المطلب الثالث: التعريف بأشهر الأعلام بالقيروان خلال القرن الرابع والخامس الهجريين:

برز في القيروان خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين مجموعة من الأعلام الكبار الذين أغنوا الحركة العلمية، أهمهم:

1- **الإمام أبو الحسن القابسي (عاش بين 324هـ- 403هـ):** من شيوخ الإمام السيوري ستأتي ترجمته في الفصل اللاحق.

2- **أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي (ت402هـ):** من أئمة المالكية بالمغرب، والمتسمين في العلم، المجيدين للتأليف، أصله من المسيلة، كان بطرابلس، وبها أملى كتابه في شرح الموطأ، ثم انتقل الى تلمسان، وكان فقيها فاضلا متفننا مؤلفا مجيدا، له حفظ من اللسان والحديث والنظر، أخذ عنه أبو عبد الله البوني، وعليه تفقه، وألّف كتاب القاضي في شرح الموطأ، والواعي في الفقه، والنصيحة في شرح البخاري، والإيضاح في الرد على الفكرية، وكتاب الأصول، وكتاب البيان، وكتاب الأموال.

وهو من علماء القيروان سكناهم في مملكة بني عبيد، وبقاؤهم بين أظهرهم، توفي بتلمسان سنة اثنتين وأربعمائة، وقبره عند باب العقبة.[43]

3- **أبو علي بن خلدون (ت 407هـ):** من فقهاء إفريقية وعلمائها وصلحائها، من أصحاب أبي الحسن القابسي، كان قد نشأ بإفريقية، جليل القدر في فقهائها، مطاعا. وكانت العامة تتبعه. وكان شديدا على أهل البدع، ذكر الشيخ أبو عمران قال: نزلت بالقيروان مسألة الملاعنة إذا نكلت عن اليمين ثم أرادت الرجوع الى اللعان فاختلفنا فيها، فأفتى فيها أبو علي ابن خلدون وغيره أن لها ذلك، كما لها الرجوع بالإقرار المحض، ومات مقتولا سنة سبعة وأربعمائة.[44]

4- **أبو عمران الفاسي (ت:430هـ):** هذا العلم شيخ من شيوخ الإمام السيوري ولذلك ستأتي ترجمته لاحقا.

5- **أبو القاسم اللبيدي (ت 440):** وهو عبد الرحمن بن محمد الشهير باللبيدي، نسبة إلى قرية لبيدة.[45] نشأ بالقيروان وتعلم بها على يد أبي محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي وغيرهما،

[43] انظر: ترتيب المدارك: 7/ 102-104.

[44] نفسه: 7/ 104-106.

[45] قرية كانت عامرة بالقرب من جبنيانة، تقع في جنوب طرابلس. (انظر: كتال العمر في المؤلفات التونسيين: 271/2).

وبعدما أكمل دراسته بعثه شيخه القابسي إلى المهدية ليفقه أهلها، وكانت إليه الرحلة من أقطار المغرب والأندلس، وأخذ عنه كثير من الفقهاء الأندلسيين والقرويين.

وكان اللبيدي تعلق بالصالحين، يتردد على العباد في الربط ويسمع منهم، وقد صحب الشيخ أبا إسحاق الجبنياني صاحب الطريقة وانتفع به، وألف كتابا في مناقبه.

وقد أطال الله عمره وبقي بعد أصحابه فحاز رئاسة العلم والتشييخ فيه بالقيروان ومن مؤلفاته الفقهية:

- الشرح والتفصيل لمسائل المدونة، وهو كتاب كبير جامع في المذهب أزيد من مائة جزء في مسائل المدونة وبسطها والتفريع عليها وزيادة الأمهات ونوادر والروايات.
- الملخص شرح مدونة سحنون.

وكانت وفاته رحمه الله سنة 440هـ، وعمره ثمانون سنة. [46]

6- **أبو الرجال المؤدب:** من أهل القيروان، درس بها ثم انتقل إثر زحفة الهلاليين عليها إلى المهدية وبقي بها إلى أن توفي،[47] كان له اشتغال بالحديث والعناية بالروايات، ومن مصنفاته في هذا المجال: مجموع أحاديث سفيان بن عيينة. من روايات عمرو بن عيينة، وأحاديث ابن شهاب. [48]

7- **أبو الحسن اللخمي (ت478هـ):** هو علي بن محمد الربعي، أبو الحسن، المعروف باللخمي (ت 478هـ)، فقيه مالكي، له معرفة بالأدب والحديث، قيرواني الأصل. نزل صفاقس وتوفي بها. صنف كتبا مفيدة، من أحسنها تعليق كبير على المدونة في فقه المالكية، سماه ب: "التبصرة" أورد فيه آراء خرج بها عن المذهب. وله: "فضائل الشام"، بدار الكتب، ألفه سنة 435هـ (49).

وغيرهم كثير فهؤلاء كانوا فقهاء كبار ومرجع العلماء والعوام، في كل ما يعترضهم من مشاكل دينية أو دنيوية، وهذه العينة التي ذكرتها ليس على سبيل الاستقصاء، وإنما انتخبت منها من كان له حضور قوي وأخذ الناس عنهم العلم، ولقيت فتاواهم القبول، واطمأن الناس إليهم.

---

[46] أنظر: ترتيب المدارك: 254/7. ومعالم الإيمان للدباغ: 3/ 175.

[47] لم أعثر على سنة وفاته.

[48] كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، حسن حسين عبد الوهاب، دار الغرب الإسلامي: 287/1.

[49] شجرة النور الزكية: 117/1. وانظر: إفادة السالك لمحمد العلمي، ص: 307.

المطلب الرابع: المؤسسات العلمية والمكتبات في القيروان خلال القرنين الرابع والخامس:

لم تكن المكتبات في الإسلام موجودة لمجرد الزينة أو للتباهي والتفاخر أو لضياع الوقت وتزجية الفراغ أو إرضاء لهواية جمع الكتب، بل كانت لغاية أسمى من ذلك بكثير، فقد كانت مكانا لتثقيف الشعب ككل ومكانا للبحث والدرس والتمحيص بشكل خاص، وتوفير المادة المصدرية لمختلف المعارف والفنون مما يحتاج إليه المشتغلون بالعلم من شيوخ وطلاب، وهذا عائد إلى حسن استخدام علماء المسلمين للمواد التي توفرت لديهم في مكتباتهم، للنهوض بأداء رسالة علمية بالغة الأهمية.

إن المكتبات هي: المقياس الحقيقي والدقيق لرقي الشعوب والأمم، وإن كثرتها وسهولة ارتيادها دليل على ثقافة الشعب وتعلمه وحبه للعلم.

وكانت القيروان منذ فجر تاريخها الإسلامي تعنى بتأسيس المكتبات وجمع المؤلفات فيها حتى يستفيد الناس منها ويرتووا من معينها، لأن الكتاب -كما لا يخفى -وعاء المعرفة.

والواقع أن النهضة العلمية الشاملة حدثت في العالم الإسلامي بعد حروب التحرير والحضارة الإسلامية كلها إنما بعثت وبالدرجة الأولى من حض الإسلام معتنقيه على العلم والتعلم.[50]

وهذه الأمة خصها الله تعالى وجعلها أمة اقرأ، لقوله تعالى: **(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).**[51]

فهذا فيه تشريف لمن علم أو تعلم أو أمسك القلم على مر العصور.

ويمكن أن نقسم المكتبات إلى ثلاثة أنواع وهي:

1.مكتبات المساجد الجوامع:

المساجد:

لعل أول المكتبات في الإسلام كانت في المساجد، لأن العادة جرت أن يودع الناس في المساجد عددا من نسخ القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية والنافعة، وقفا لفائدة المطالعين والمصلين، ومن الواضح أن مكتبة المسجد ظهرت للوجود منذ اتخذ المسلمون المسجد مكانا للدراسة، ذلك لأنه لا دراسة بدون كتب، وإذا علمنا أن الدراسة على مختلف مراحلها وبأغلب فروعها كانت تتم في المسجد والجامع...

[50] المكتبات في الإسلام : نشأتها وتطورها ومصائرها، لمحمد ماهر حمادة، ص: 28.

[51] سورة العلق: 1-5.

وقد كانت تدرس في المساجد جميع أنواع العلوم باستثناء الطب. وكانت تعقد الحلقات في المساجد للدراسة والمناظرة.[52]

ولا شك بأن هذا الأمر كان سائدا في القيروان كذلك. وهذا النوع من المكتبات العامة في الإسلام التي كانت ذائعة كل الذيوع منتشرة في أرجاء العالم الإسلامي، وكانت مباحة للجميع.

وأما الأنواع الأخرى من المكتبات التي كانت في القيروان في القرن الخامس، ومنها ما هو موجود إلى الآن:

مكتبة الجامع الكبير في القيروان:

وهو من أكبر الجوامع في العالم الإسلامي، وهو أكبر من الجامع الأزهر، أنشأه المسلمون الأوائل الذين حرروا شمال إفريقيا، وزاد عليه من جاء بعدهم ثم وسعه وأتم بناءه المعز بن باديس ابن منصور في عهده الذي استمر من سنة 406هـ إلى 454هـ، وقد ألحقت بهذا الجامع مكتبة ضخمة جارت وضاهت مكتبات بغداد وقرطبة.[53] وسميت بالمكتبة الصادقية، التي اشترت المكتبة النجارية، ثم بعدها انتقلت إلى دار الكتب العلمية.[54]

واستمرت هذه المكتبة خلال هذه العصور واعتراها ما اعترى غيرها من الإهمال والضياع والسرقة، ثم عنيت الحكومة التونسية بها سنة 1940م.[55] أي أعادت بناءها وإعمارها وترتيبها.

2.مكتبات عامة:

بيت الحكمة في القيروان:

تضم هذه المكتبة نفائس أمهات الكتب أنشأها إبراهيم الثاني الأغلبي في رقادة بالقيروان محاكاة لبيت الحكمة التي أسسها هارون الرشيد في بغداد، حيث كانت هذه البيت نواة لمدرسة الطب القيروانية التي أثرت في الحركة العلمية في المغرب لزمن طويل.

وقد ذكر أبو الأرقم المصري أن عثمان - ﷺ - أرسل مصحف الإمام إلى أهل المغرب وكان محفوظا في بيت الحكمة القيرواني.[56]

هذه إشارة إلى أنه كانت هناك مكتبة تسمى ببيت الحكمة في القيروان، كما كانت في بغداد، وكذلك في الأندلس.

---

[52] المكتبات في الإسلام، ص: 82-83 (بتصرف).

[53] لمحات في المكتبة والبحث والمصادر للدكتور محمد عجاج الخطيب، ص: 37. الهامش الثاني.

[54] انظر: مقدمة محقق: آداب المعلمين، ص:07.

[55] لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ص: 37. الهامش الثاني.

[56] التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن عبد الناصر بن طرهوني الكعبي السلمي أبو الأرقم المصري المدني ، 49/1.

وكان بيت الحكمة القيرواني يرأسه إبراهيم بن أحمد الشيباني (ت 298 ه)، وهو صاحب مسند في الحديث وله كتاب: "سراج الهدى في القرآن ومشكله وإعرابه ومعانيه، ومصنفات أخرى في الأدب.[57] واستقر بالقيروان واستكتبه أمير إفريقية إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، ثم ابنه أبو العباس عبد الله، ثم كان على بيت الحكمة في أيام زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك الأغالبة.

وكان بيت الحكمة تضم مكتبة ودارا للترجمة والتأليف ومعهدا لتدريس الطب والصيدلة والرياضيات والفلك والهندسة والنبات والموسيقى وغيرها.[58]

ويعتبر هذا البيت أول جامعة علمية ثقافية بإفريقية حيث أسست سنة 264هـ، كما يمكن أن ندرجها ضمن المكتبات الأكاديمية، لأنها مخصصة للبحث والدرس والدراسات العليا.

3.المكتبة الأثرية بالقيروان:

تعتبر هذه المكتبة من مكتبات القيروان، وتضم عدة كتب ولكنها قليلة بالمقارنة مع المكتبات الأخرى كما أشار إلى ذلك الشيخ محيي الدين الكتاني فقال: "مكتبة القيروان فيها عدة كتب، ولكنها ضئيلة جدا بالنسبة لما كان يصفها به الرحالون في القرن الخامس وقبله، وجل ما فيها أوراق مُدَشّتة[59]، ولكنها عتيقة وأكثرها في الرق وغاية في القدم منها قطع قرآنية بخط كوفي في الرق، كتب عليها ما يفيد أنها تحبيس فاطمة أبي مناد باديس.[60].[61]

4.مكتبات الخاصة:

انتشر هذا النوع من المكتبات في جميع أنحاء العالم الإسلامي وحرص الكبراء والوزراء والعظماء والأغنياء على اقناء مجموعات ضخمة فخمة منها، وسميت بالمكتبات الخاصة لأنها تخص أفرادا معينين أنشؤوها لفائدتهم ومصلحتهم، وفي غالب الأحيان من أموالهم الخاصة، إلا أن بعضهم كان يبيحها للناس جميعا. يمكن أن نقول: كانت شبه عامة إن صح التعبير. وبعضهم يفتحها لأصدقائه أو العلماء أو الباحثين ومن يثق بهم، والبعض الآخر حرم استعمالها إلا على نفسه وحاشيته.[62]

---

[57] التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا: 66/1

[58] تاريخ المغرب وحضارته، ص: 615

[59] مدشتة: من الدشت وهي الخروم أو الأوراق والصحف المتفرقة، وهي كلمة فارسية.(انظر: معجم مصطلحات المخطوط العربي(معجم كوديكولوجي)، لأحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي، حرف الميم ص: 324).

[60] فاطمة الحاضنة: من ربات البر والإحسان، كانت نصرانية، وأسلمت بعد أسرها والتحاقها بقصر الأمير المنصور الصنهاجي الذي اختصها لحضانته ابنه باديس وقد نالت خطوة كبيرة في عهد المعز بن باديس واشتهرت بالفضل فوقفت على جامع عقبة بالقيروان الكتب النفيسة والمؤلفات النادرة، توفيت رحمه الله سنة 420هـ.(انظر: الشهيرات التونسيات لحسن حسين عبد الوهاب، ص: 38- 39).

[61] انظر: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف الكتب، للشيخ عبد الحي الكتاني(1382هـ/ 1962م)، ، ص: 142).

[62] انظر: المكتبات في الإسلام، ص: 86.

وهذا النوع من المكتبات تدرج مع مكتبات المساجد، لأنها أول أنواع المكتبات في الإسلام ظهورا.

وكان من عادة العلماء والوزراء والأغنياء أن يوقفوا بعد وفاتهم مكتباتهم على مدنهم فتصير مكتبات عامة.[63]

وفي القرن الخامس وقبله، كانت منازل العلماء من المراكز العلمية التي أسهمت في نشر العلم، جاء في رياض النفوس: "أما في القيروان فإن كثيرا من الفقهاء قد اعتبروا المنازل مكانا صالحا للتعليم، فعقدوا فيها مجالس العلماء، وفتحوا أبواب دورهم لاستقبال من يقصدهم من طلبة العلم، ولهم في هذا الأمر قدوة بمن عرف عنه ذلك من أهل العلم، كالإمام مالك الذي كانت له حلقة في داره".[64] فكان للإمام سحنون حلقة عظيمة في داره، كما حدث (سحنون) بكتب ابن وهب كلها في قصر زياد، عندما خرج إليه فرارا من محنة القول بخلق القرآن وكان لمحمد بن يحيى بن سلام (ت 200ه) المفسر مثلها، وكان عيسى بن مسكين(ت295ه) يحدث بكتب ابن وهب في منزله.[65]

ورغم ما شهده القيروان من الفتنة بسبب العبيديين لم يبخل العلماء عن التدريس في هذه الفترة الحرجة، فلما منعوا من التحديث والإقراء في المساجد فتحوا بيوتهم للطلبة فقصدوهم للتلقي، حتى إن دار أبي إسحاق السبائي (ت 356ه) كانت كالمسجد.[66] لكثرة من يقصده من الطلبة.

وفي سنة 443ه وقعت بين الأعراب وبين المعز حروب كثيرة كانت فيها الدائرة عليه، وتمكنوا من دخول القيروان في هذه السنة، فخربوها وأتوا على الأخضر واليابس، وتقاسموا مدنها، فما من قرية إلا وقد سحقت وأكلت، وأهلها عراة أمام حيطانها، من رجل وامرأة وطفل، يبكي جميعهم جوعا وبردا، وانقطعت الميرة عن القيروان، وتعطلت الأسواق.[67]

وبذلك انتهت حاضرة القيروان التي كانت العاصمة الدينية والعلمية والسياسية لإفريقية، منذ الفتح إلى أن خربت دار العلم بإفريقية، إليها ينسب أكابر علمائه وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم، فلما خربت جلا أهلها عنها وتفرق من بقي حيا من علمائها في الأمصار، ولم تعد إليها الحياة العلمية إلا بعد أكثر من قرن من الزمان.[68]

أي إن المكتبات نالت نصيبا من الحرق والإتلاف، وهذه المرحلة يمكن أن نسميها النقطة السوداء والصفحة المظلمة في تاريخنا الإسلامي.

---

[63] نفسه، ص: 128.

[64] رياض النفوس، 284/1.

[65] انظر: معالم الإيمان للدباغ: 3/ 66

[66] التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا: 67/1- 68

[67] التفسير والمفسرون في غرب أفريقي: 67/1- 68

[68] التفسير والمفسرون في غرب أفريقي: 82/1

خاتمة:

من خلال هذه الرحلة العلمية في الموضوع الذي وسمته بالحركة العلمية بالقيروان خلال القرنين الرباع والخامس الهجريين. وتوصلت إلى النتائج الآتية:

- من خلال هذه الجولة البحثية تبين لنا بأن الإنتاج العلمي بالقيروان خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، عرف تطورا مهما، وكما اكتشفنا عدة مؤسسات علمية أسهمت في تطوره وازهاره مثل: المساجد والمكتبات بأنواعها العامة والخاصة، والكتاتيب، ومجالس العلماء وبيوتهم وحوانيتهم وغيرها، وبفضلها حظي الغرب الإسلامي بمكانة مرموقة في مجال العلم والمعرفة، والقيروان بصفة خاصة.

- وجدت أن الحركة العلمية بالقيروان في هذه الحقبة الزمنية تتميز بخصائص عديدة. وتوقفت على مؤلفات نفيسة يتبين من خلالها التطور العلمي وازدهاره. كما أبرزت الأعلام التي اشتهرت بالقيروان ويرجع إليهم الفضل في تحقيق النهضة العلمية إبان هذه الفترة الزمنية، والتي أعطت لنا مكانة القيروان العلمية المرموقة.

ولتحقيق مزيد من النتائج لا بد من ذكر بعض التوصيات منها:

- أدعو الطلبة الباحثين إلى البحث في التراث المتعلق بالقيروان في مختلف العصور من أجل إبراز المكانة التي كانت تحظى بها القيروان على جميع الأصعدة (الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية...)، لأن هذه المنطقة كانت وجهة للباحثين من طلبة العلم، كما كان يقصدها غيرهم لتحقيق المآرب الاقتصادية وغيرها.

- ضرورة البحث في فروع المعرفة المختلفة التي انتعشت في القيروان وهو ما يدل على التكامل المعرفي في الجوامع العلمية في العالم الإسلامي، كالفقه واللغة والفلسفة والطب وغيرها

- البحث المتخصص في سير الأعلام الذين أسهموا في إبراز المكانة العلمية لجامع القيروان، وكذلك إبراز إنتاجهم العلمي وتحقيقه بعد جرده وتصنيفه.

- البحث عن الأساليب التربوية التي كان ينهجها المدرسون العلماء في القيروان، من أجل الاستفادة منه في الدعوة إلى التنظير العربي الإسلامي لفكر تربوي تعليمي حضاري ذي أصول إسلامية.

لائحة المصادروالمراجع:

01. إفادة السالك بتمييز الأعمال المتشابهة في مذهب مالك، محمد العلمي، صححه وراجعه: عبد الرحيم اللاوي، مركز البحوث والدراسات الإسلامية في الفقه المالكي -الرابطة المحمدية للعلماء -، الرباط، ط.1، 1436هـ/2015م.

02. بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، عبد الوهاب حسن حسني، تقديم: محمد العروسي المطوي، مكتبة المنار- تونس، ط.2، 1970م.

03. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت 695هـ)، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط.3، 1983م.

04. البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي أبو العباس، تح: بشار عواد معروف - محمود بشار عواد، ط.1، 1434هـ-2015م.

05. تاريخ المغرب وحضارته، محمد بن عبد السلام بن عبود، دار الطباعة، تطوان، ط.2، (د.ت.).

06. تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف الكتب، للشيخ عبد الحي الكتاني(1382هـ/ 1962م)، ضبط وتعليق أحمد شوقي وعبد القادر سعود، المكتبة الحسنية- الرباط، ط.2، 2005م

07. تاريخ علماء الأندلس، عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي(ت: 403هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.2، 1408 هـ - 1988 م

08. تراجم الأغلبية / تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، عبد العزيز الثعالبي، جمع وتحقيق: د. أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، تقديم ومراجعة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، (دت.)

09. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت 544هـ)، المحقق: ج.1: ابن تاويت الطنجي، 1965 م، ج. 2، 3، 4: عبد القادر الصحراوي، 1966 - 1970 م، ج.5: محمد بن شريفة، ج. 6، 7، 8: سعيد أحمد أعراب 1981-1983م، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط.1، (د.ت.)

10. التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن عبد الناصر بن طرهوني الكعبي السلمي أبو الأرقم المصري المدني، أصل هذا الكتاب: رسالة دكتوراه، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط.1، 1426هـ

11. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت: 799هـ)، تحقيق وتعليق: د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت.)

12. رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، حققه: بشير البكوش، راجعه: محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط.2، 1414 هـ - 1994 م.

13. الشهيرات التونسيات لحسن حسين عبد الوهاب، منشورات مكتبة المنار- تونس، ط.4، (د.ت).

14. طبقات علماء إفريقية وتونس، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي، تقديم وتحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر- تونس، بدون طبعة، 1985م

15. كتاب آداب المعلمين، ابن سحنون، تح: حسن حسين عبد الوهاب، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط.، 1972م.

16. كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، حسن حسين عبد الوهاب، دار الغرب الإسلامي، د.ط، (د.ت.) 17. كتاب القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، د. محمد محمد زيتون، دار المنار، ط.1، 1408هـ/1977م.

18. لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، ط.1، 1432هـ- 2011م.

19. محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، عمر الجيدي، منشورات عكاظ – الرباط، 2016.

20. المدرسة الحديثية في القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي – الرياض، ط.1، 1411هـ.

21.المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، نجم الدين الهنتاتي، منشورات نير الزمان- تونس، 2004م.

22. المذهب المالكي مؤلفاته – خصائصه وسماته، محمد المختار محمد المامي، إصدار مركز زايد للتراث والتاريخ، ط1، 1422هـ-2002م

23. مسائل أبي الوليد بن رشد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، دار الجيل بيروت، دار الآفاق الجديدة المغرب، ط.2، 1993.

24. معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، لأبي عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي الدباغ (605-696هـ)، أكمله وعلق عليه: أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت 849هـ)،تحقيق وتعليق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس، (د.ت.)

25 معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، للدباغ، تونس، د.ط.، 1322هـ

26. معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت. 626هـ)، دار صادر، بيروت، ط.2، 1995م.

27. معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط.2، 1408 هـ- 1988م.

28. معجم مصطلحات المخطوط العربي(معجم كوديكولوجي)، أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي، الخزانة الحسنية- الرباط، ط.3، 2005م.

29. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها، لمحمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.2، 1398هـ - 1978م.

30. ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، حسن حسين عبد الوهاب، مكتبة المنار- تونس، ط.1، 1972م.

31. وقائع الندوة التي انتظمت بالقيروان، يوم الأربعاء 20 يناير 2010، بعنوان: "بيت الحكمة بين بغداد والقيروان: التواصل الثقافي العربي الإسلامي".